أشكال الفضولية عبر المدارس: قراءة في جذور المنشأ والوظيفة

Forms of curiosity across schools: reading in the roots of origin and function

د. بشقه عزالدين

مخبر بنك الاختبارات النفسية والمهنية والمدرسية.

قسم علم النفس وعلوم التربية والأورطفونيا.

جامعة باتنة -1- الجزائر

تاريخ الاستلام : 2018/11/23 ؛ تاريخ المراجعة : 2020/04/05 ؛ تاريخ القبول : 2020/06/15

ملخص:

الفضولية أو حب الاستطلاع، تلك الصفة التي ميزت الإنسان و قبله الحيوان، ومهما اختلف الأخصائيون في تصنيفها: دافعا أو سمة، لكنهم اتفقوا كلهم على أنها المبعث للمعرفة واستكشاف المحيط.

فبفضلها جاء التراكم المعرفي ليغير المسار الحضاري للإنسان حيث البحث عن الجديد وغير مألوف يعتبران لب الابتكار.

ورغم التقاء آراء المدارس والأخصائيين حول وظيفتها، لكن جذور المنشأ تشعبت عبر المدارس والنظريات، فجذورها من منظور التحليل النفسي تلتقي في صيرورة البنية النفسية بالمعطى المعرفي الذي تكاد تتلاشى نهايته مع المنظور الاجتماعي.

هذا المقال يصبو إلى الولوج إلى جذور الرؤى قصد استجلاء معناها وتقريب الصورة لفهم وظيفتها.

الكلمات المفتاحية: الفضولية، منظور التحليل النفسي، منظور السيكولوجية المعرفية، منظور اجتماعي.

Abstract :

Curiosity, that character which marked the human behavior and before the animal one**,** and whatever specialists differed in classified it: trait or motivation, they agreed all of them as source of knowledge and environnement exploration. By its favor, accumulation of knowledge came to change human civilization path, where the search for new and unfamiliar are the core of innovation.

And despite the views of the confluence of schools and specialists about its function, its genealogy of origin branched out across schools and theories ;genealogy from psychoanalysis perspective intersects with the process of psychological structure of knowledge, which is almost fade its end with the social perspective.

This article aspire to access to the roots of visions in order to clarify its meaning and rounded to clear its image in game to understand its function.

Key words: Curiosity, psychoanalysis perspective, cognitive psychology perspective, social perspective

مقدمة

تعددت الرؤى ومنطلقات دراسة ظاهرة الفضولية منذ تكوين التصورات الأولية حول الحيوان إلى الدراسة الميدانية القائمة على نظريات ومدارس نفسية تخص عالم الفضولية لدى البشر، سواء تعلق الأمر بعلم النفس النمو أو مجالات علم النفس المعرفي اللذان أعطيا مخططا عاما لمفهوم الفضولية سواء تعلق الأمر بماهيتها وتكونها أو منشئها الأولي، ولأن كان التشابك بين تطور نمو مفهوم الفضولية بين علم النفس النمو وعلم النفس المعرفي يكاد لا يتباين مع قلة الدراسات للفضولية التي تناولها علم النفس المعرفي، إلا أن المدرسة النفسية وبخاصة التحليلية أعطت تصورا متكاملا لنشأة وتكون الفضولية منذ الميلاد إلى غاية سن المراهقة وتبقى المكتبة العلمية شحيحة من الدراسات التي تناولت الفضولية لدى الراشدين(Voss & Keller,1983,p.15).

ومهما كانت المقاربة السيكولوجية للفضولية، فإننا سنجد عبر هذه الإطلالة على جذور تكون الفضولية العديد من الميادين الشاسعة مثل الدافعية، النزوات، العاطفة، حالات الطوارئ، تفضيل الجديد، ومن أجل الولوج إلى هذه الميادين يبدو التساؤل شرعي: هل الفضولية وظيفة مكتملة ومميزة أم أنها تخص وصفا لوظائف سيكولوجية أولية مثل الطوارئ والدافعية؟

1_ الدلالات الايجابية و السلبية للفضولية: إن التاريخ الدلالي لكلمة فضولية يعطي نوعين من الدلالات الايجابية والسلبية. فالفضولية التي أصلها الكلمة اللاتينية(curiosus) لها على الأقل المعاني التالية: متيقظ، مجتهد مثابر، فاحص، شغوف للمعرفة وباحث عن كل غريب (Edelment,1997,p.5)، كما أضيفت لها معاني مثل الرغبة الشديدة والبحث لمعرفة الآخر، هذه التعريفات المتعددة تنبئ بالطبيعة الغامضة والأوجه المتعددة لطبيعة الفضولية.

هذه المصطلحات تُعرِف الفضولية كرغبة ايجابية ومنشطة وما تحمله المصطلحات من جدلية المظاهر الايجابية والسلبية محتواة ليس فقط في التدخل أو الفحص أو الرغبة الملحة ولكن في معاني الاستغراب والغرابة لأن الذين يهتمون بالغريب من الأشياء والأشخاص يحملون في مسعاهم ركوب الخطر. كما تجدر الإشارة هنا إلى أنه قبل سنة (1900) معظم الأخصائيين النفسانيين الذين درسوا الفضولية يعتبرونها ذات طبيعة اجتماعية وغالبا ما يركزون على المظاهر السلبية للفضولية، فالسلوك الفضولي يعد تافها، سيء، سطحيا وهداما وقليلا ما يُعتبر هذا السلوك منتجا ومبدعا(Voss & Keller,1983,p.16).

لكن مع الملاحظات التي أبداها الباحثون لسلوك الأطفال ظهرت الدلالات الإيجابية، فتعبيرات الفضولية مثل السلوك الحركي للبحث،أو الرغبة في الجديد والتساؤل عنه كانت أساسا للملاحظات المُشَكلة من قبل "داروين"، " فرويد " و "بياجي".

هذا التجاذب بين السلب والإيجاب لوظيفة الفضولية تدفعنا للتقرب نحو استكشاف الجذور الأولية من أجل فهم آليات تشكل صورتها.

2- الفضولية من منظور التحليل النفسي: يرى "فرويد" "Freud" أن الفضولية لها هدف بنائي وايجابي ويرتبط هدفها باللذة، ففي مهمته لصياغة ومراجعة النظرية التحليلية للوظيفة العقلية يقدم "فرويد" ثلاث رؤى مختلفة للفضولية(Aranoff,1962,p.40):

الأولى: تنشأ من النظرية الأحادية لموضع النزوة وتعتبر تفسيرا للاستكشافات الجنسية المبكرة لدى الطفل، ففي سنة(1905) يصف "فرويد" الفضولية بأنها تعبيرا للرغبة الجنسية، فالفضولية تظهر لما يكتشف الطفل الإحساسات الخاصة بجسمه ويتلذذ بها مثل النشاطات الأولى للمس التي تثير لديه حالة طوارئ غرائزية وتدعم الجهود الاستكشافية لديه، ومن حاسة اللمس إلى حاسة الرؤية التي تثير الأنشطة الاستكشافية حيث يتعرف على العالم المتحرك والساكن، وهكذا تستمر الفضولية خلال نمو الإنسان كمشتق للرغبة لدى الطفل في الجسم والجنس، ففعل الرؤية يتسامى فقط في الأنشطة المتعددة أو يأخذ شكل الانحراف أو البصبصة.

الثانية: إن الاستكشاف والرغبة في المعرفة يظهر لما يتفاعل الطفل مع عالمه الاجتماعي مثل وجود مولود جديد، ففي هذه الحالة تعتبر الفضولية آلية تسمح للطفل بمجابهة الإشكال الجديد القائم على المنافسة من طرف هذا المولود الذي يستحوذ على حب وعطف الوالدين.

الثالثة: يصف "فرويد" غريزة مميزة من خلال مقاله حول "اليوناردو دي فنشي" (1910) هذه الغريزة سماها الخواء المعرفي الذي كان قويا لدى "دي فنشي" وينبني أصلا على القوى الغرائزية الجنسية ولكنه يأخذ دورا أكثر عمقا، هذا الدور المنشط والدافع يعزوه فرويد" إلى عوامل عضوية لم تعرف بعد.

لم يوضح "فرويد" المجالات المشتركة للرؤى الثلاث ولا الإشكال العام للفضولية لدى الراشد ولا الدافعية التي تدفعنا إلى البحث عن الجديد فكل تصوراته بخصوص اليوناردو دي فنشي لم توصله إلى ربط الفضولية بالابتكار العلمي، كما أنه لم يكتب عن المظاهر التكيفية للاستكشاف لدى الراشد.

أما في ما يخص العرض الإكلينيكي المباشر حول الفضولية لدى الراشد فإنه يعتبر: الاستحواذ، قمع البصبصة والرغبات الجنسية المبكرة أساسيات للتعلم.

أما لدى "دي فنشي" فيعتبره استثناءا وذلك بتسامي القسم الغرائزي المتعلق بالبصبصة وليس باضطهادها، ففي المجال العيادي فإن النتيجة التكيفية تبدو أنها الاستثناء وليس القاعدة.

ومن هنا تبدو الرغبة في المعرفة موجهة من قبل صراعات مستمرة في ما يخص المجهول ولكنه مرغوب، فالفضولية تستمر كمُحوِل للمغامرات الطفولية في مجالات الجنس والإنجاب، فالاكتشاف الذي نادرا ما يأتي بحلول محددة أو قادرا على إطفاء قلقه.

أما في التحولات الأخرى لغريزة البصبصة المُبكِرة وقهر الفضولية الجنسية فإن الإشكالات التي نحن بصددها تكون دائما بلا حلول:" السؤال الذي نود طرحه لا نحصل واقعيا على جواب عنه، أو بعبارة أخرى من المستحيل الإجابة على سؤال يأخذ مكان الإجابة أي أن السر يبقى دائما محفوظا. ومن هنا فإن تصورات آبراهام (Abraham) لها تأثيرا قويا على تطبيق التحليل النفسي، فكون الشخص في حالة فضولية يعتبر إكلينيكيا على أنه تسوية، طريقة دفاعية أو آلية مقاومة وتبقى (الجدلية) المبكرة بين المظاهر الايجابية والسلبية للفضولية ضمنية في الرؤى نحو الفضولية كظاهرة إكلينيكية.

وهكذا مع مرور الزمن، لم تتغير رؤى العديد من الإكلينيكيين حول الفضولية كآلية استحواذية التي تعطي للمريض معلومات جديدة نادرة، أو حلولا تكيفية أو فهما، أوميكانيزم مقاوم لصيرورة التحليل النفسي (Kreitler ,p.187 & Zigler,1975). لذلك كان الهدف من العمل العلاجي هو إيجاد حل للصراع المتمركز على الرغبة والذي يمكن أن يتوحد مفهومه في اتجاه كحل للفضولية، فإذا نجح العلاج، فإن المريض سيتنفس الصعداء من تلك الأسئلة الداخلية التي بقيت دون إجابة.

يعرض لنا الأخصائي إمش (Emch) (1944) أربعة أشخاص يعانون من الرغبة في المعرفة والتي تحدد معظم أنشطتهم اليومية، فخلال التحليل اتضح أن الأمر يعود إلى تجارب مبكرة مع الآباء الذين كانوا مهملين أو غائبين أو أن حياتهم كانت متناقضة. ففي هذه الحالات تعد الرغبة في المعرفة دافعا إلى أبعد حد آخذة صبغة تكرارية، وهذه الرغبة تخدم كذلك وظيفة دفاعية في اتجاه ما يبحث عنه المريض(Kreitler & Zigler, 1974, p.188).

أما " ميلاني كلاين" (1923) فهي تصف كذلك "غريزة ابستمولوجية " التي تنبع غالبا من ارتباطات تكشف عن مصلحة جنسية مبكرة، فكبت هذه الغريزة يكون متبوعا بعصاب استحواذي.

بعد مرور سنوات واعتمادا على إرضاء وحرمان الرضيع المسبب من قبل جسم أمه المدرك كمشبع ومحبط في آن واحد، ربطت "ميلاني كلاين " مباشرة الفضولية بالعدوان والكره، فقد أكدت على أنها ليست مصالح غرائزية بحتة في الجسم المغذي للأم الذي هو المسبب للغريزة الابتسمولوجية ولكن بصفة أخرى أكثر أهمية إنها السادية المبكرة والعدوان اللذان ينشآن عبر الاحباطات المبكرة للرضيع تجاه أمه، فالغريزة الابستمولوجية والرغبة في التملك تظهر مبكرا وتكون مرتبطة ببعضها بعلاقة حميمية.

فالتواصل بين الفضولية والرغبة في المعرفة والعدوان تظهر جليا التجليات الايجابية والسلبية للفضولية، رغم أن " فرويد" و"إبراهام" يعتقدون أن سبب التجليات السلبية للفضولية يعود إلى عدم القدرة على التسامي بمكونات الغرائز

المكتشفة مبكرا، في حين ميلاني كلاين" تؤكد لاحقا على أن المظاهر الايجابية والسلبية للغريزة الابستمولوجية تستمر وتتواجد خلال فترة النمو **(**Hinshelwood ,1989,p45**).**

على عكس "فرويد" يضع "ابراهام" و "كلاين" (1928) ظهور الفضولية قبل ظهور اللغة ويعتقدون أن فترة ظهور الغريزة الابستمولوجية خلال النمو هي المسؤولة أساسا على التحويلات اللاحقة، "فالأنا يكون ضعيف النمو لما يكون مُداهما بانغلاق التوجهات الأوديبية وكذا من طرف الفضولية الجنسية الناشئة المرتبطة بهذه التوجهات، فالرضيع الضعيف النمو عقليا يكون معرض لوابل من الإشكالات والتساؤلات لأن الكثير من الشكاوى الأكثر مرارة التي نلاقيها في اللاشعور هي أن هذه الأسئلة المتزايدة وغير قابلة للتحمل والتي لا يمكن التعبير عنها بواسطة الكلمات تبقى بدون إجابة، فالأسئلة الأولى للرضيع تسبق بداية فهم اللغة كما أقر بذلك برلاين (Berlyne, 1950)

إن تجربة هذه الأسئلة دون جواب ودون معرفة لها ارتباطات مع انفعالات أخرى مثل عدم القدرة والضعف، فميلاني كلاين (1928-1931) تعتقد أن للطفل القدر الهائل من الاحباطات والكره المرتبط بنقص المعرفة والرغبة فيها ما يكفي للشعور بالذنب المرتبطة بتلك المعرفة وكذا بكافة أشكال الإعاقات الذهنية وتثبيطات النزوة الابستمولوجية. إضافة إلى النظرية التحليلية فإن سيكولوجية الأنا والدافعية التي جاءت بعد "فرويد" وكذا آراء كل من "أبراهام" و "كلاين" تبدو ناجعة في ما يخص موضوعنا، رغم أنها لا تعالج بصورة مباشرة الفضولية والاكتشاف وبالخصوص نظرته لتشكل الأنا المقترحة من طرف "هارتمان" (1939، 1946) التي تنضوي تحتها العديد من الوظائف المهمة للفضولية مثل : الإدراك، الذاكرة، التفكير والسلوك لأن مثل هذه القدرات الوظيفية يمكن أن تساهم في حالات الصراع فهي لا تنشأ من الصراع ولا تعود مبدئيا إلى تمظهر الغرائز، هذه الوظائف الذاتية الأولية للأنا تتغير مع النضج وهي المسؤولة على تنظيم الشخص في علاقته بالواقع (Saxe & Stollack,197,p.378).

ففي كل مرحلة من مراحل النمو يمكن للوظائف الذاتية للأنا المرتبطة بالاستكشاف أن تتأثر بالنزوات، فالإدراك البصري مثلا يساهم مبكرا في الخبرات السمعية الليبيدية المصاحبة للأم خلال الإرضاع.

ومن جهة أخرى فإن الوظائف الذاتية للأنا تساهم كذلك في الدفاع المغمور من طرف متطلبات غرائزية وكذلك من طرف العالم الخارجي، فكل الأنشطة الإدراكية والحركية المبكرة للرضيع هي تعبيرات عدوانية وتستخدم للتعبير عن الإحباط وكذا تعميق الخبرات الليبيدية.

يفسر "هارتمان" الفضولية كحالة من الانتظام الداخلي للتنسيق بين مختلف الوظائف الذاتية للأنا والتي هي في خدمة الرغبة في المعرفة والبحث. هنا الفضولية لا تمثل غريزة إبستمولوجية أولية ولكن يمكن أن تكون مطلوبة من طرف العديد من الرغبات الغرائزية لدى الأطفال حديثي السن.

كما ساهم "آبراهام" (Abraham) كذلك في مفهوم الاستحواذ المعرفي فهو يقترح بأن قهر غريزة الفضولية تسبب تحولات متعددة في غريزة البصبصة، فالقهر الاستحواذي للمعرفة أو طلب التفاصيل بإلحاح مثل الغريزة الأولية لمشاهدة جسم الأب الذي لا يجب رؤيته يتحول إلى مشاهدة ما هو مستحيل رؤيته (Hartmann, 1956,p.20)

فالرغبات الجنسية المبكرة أو العدوانية تتطلب وظائف ذاتية استكشافية للأنا من أجل تلبية الرغبات الغرائزية وقد تستمر إلى غاية الرشد، على خلاف مفهوم الفضولية لدى " فرويد" والغريزة الابستمولوجية لدى "كلاين" فبدلا من استدعاء نضج القدرات الاستكشافية فإن هذا التصور يستدعي بأن تستخدم الغرائز الليبيدية الوظائف الاستكشافية للأنا التي هي في حالة نشاط ، بينما يرى هارتمان (1964) بأن وظائف الأنا يمكن أن يكون لها أهدافها الخاصة وتنشط بصفة مستقلة عن الرغبات الغرائزية.

أخيرا يبقى السؤال مطروحا هو: إذا اعتبرنا بأن التركيبة المدمجة لوظائف الأنا المُكونِة للنشاط الاستكشافي يمكن أحيانا أن تنشط خارج المتطلبات والصراعات الغرائزية فأين هي الدافعية التي تسير مثل هذه الوظائف الاستكشافية؟

3- الفضولية كنزوة و كحالة دافعية: في نهاية القرن(19) وبداية القرن(20) وخارج أوساط التحليل النفسي فإن المفهوم الفرويدي للفضولية المعرفية كغريزة أولية هو الذي كان يغذي ولعدة حقب الدراسات الإمبريقية للاستكشاف من طرف السلوكيين المهتمين بالنظام: مثير – استجابة، وفي هذا السياق يقرر المعاصرون ل"فرويد" بأن نزوة المعرفة كانت القاعدة للسير وراء الأنظمة المعرفية.

يؤكد جيمس" James "(1950) على أن الفضولية تمثل وظيفة بيولوجية وسلوك منشط من طرف الغريزة الضرورية للتقرب من الجديد والمجهول. فتجارب هارلو(Harlow) وآخرون تبين بأنه حتى لدى الحيوانات التي يتم إشباع نزواتهم الأولية (الجوع و العطش مثلا) فإنها تستكشف محيطها وهذه التجارب دعمت كمسلمات وجود نزوة مستقلة للبحث ومعرفة الجديد.

ومن هنا فإن المنظرين للتعلم المعتمدين على نموذج " مثير- استجابة" من أجل تصور الفضولية يجدون أنفسهم أمام لغز.

ففي حالة ما تكون الفضولية تمثل نزوة أولية كما تعتقد النظريات التقليدية للنزوات، لكن في مثل هذه الحالة تختلف عن الجوع والجنس بما أن الفعل الاستكشافي غير متبوع بتخفيض الفضولية لأنه عادة يحدث العكس، فالاستكشاف عادة يرفع من الرغبة في البحث ولما تزيد فرص استكشاف المعارف الجديدة لدى الحيوانات أو لدى البشر يصبحون أكثر فضولية، كما أن هناك حقيقة تعاكس النظرية الكلاسيكية للنزوات وهي أن التعرض المستمر للمثيرات لا يبدو أنه متبوع بانخفاض في الفضولية.

فموضوع الانتباه قد يتغير، أي أن الطفل يمكن أن يكتشف الجديد ولكن الفائدة في الاستكشاف ومستوى الإنذار للفضولية يبقى غير متغيرا، وبالتالي إذا عرفناها (الفضولية) على أنها غريزة أولية، فإن هذه الغريزة عادة لا يتم إشباعها ولو مؤقتا مهما عرضناها للموضوع(Flower,1965 ,p.10).

هذا اللغز وعدة ألغاز أخرى إمبريقية جعلت التفكير في تواجد عدة مكونات أساسية في بنية الفضولية في ميادين علم النفس النمو والمعرفة، جعلت الفضولية مفهوما متعدد الأبعاد أكثر تعقيدا من النزوة الأولية المنفردة. هذا التطور النظري الذي لخصه فوس(Voss) وكيلر(Keller)(1983) في ثلاثة مساهمات تصورية كبرى وهي :

1- تنظيم حالات الإنذار أو القدرة على مساندة الانتباه لمدة طويلة من أجل اكتساب المعلومات الجديدة.

2-الفائدة من الجديد والرغبة فيه.

3- الدافعية.

إن نظرية هذه العناصر الثلاث محتواة في أعمال " برلاين" (Berlyne)، بياجي" و"وايت". فبرلاين يؤكد على أن الفضولية مبنية على حالات داخلية للإنذار والاستثارة التي تعدل الانتباه وتوجه تجاه العالم الخارجي، أما "بياجي" (Piaget) يؤكد على الرغبة الفطرية لمعرفة الجديد، في حين "وايت" يعتقد أن الهدف من الفضولية هو تحقيق المشاعر الداخلية للارتياح واستجلاء العوامل الخارجية للتحكم.

حسب صياغة برلاين (5،57،60،664) فإن الفضولية نزوة هدفها الإبقاء على مستوى معين من النشاط أو الإنذار، ويشير إلى أن التنبيه غير كاف فهو كذلك تنبيه كاستثارة والتي عبرها يكون الاستكشاف أو تثار وظيفة الفضولية للإبقاء على حالات الإنذار في الحدود المثلى، وأن مستويات الإنذار والتنشيط تكون مؤثرة من الخارج من طرف خصائص المثير مثل: الجدية، التعقيد، المفاجأة أو الغموض.

ففي كل لحظة ولدى كل فرد، فإن الفضولية تعدل هذا المستوى من الإنذار وتبقي على مستوى أعلى من المنفعة والتنشيط، فهذه القدرة على التعديل تترجم سلوكيا في أفعال تأخذ كل أشكال السلوكات الاستكشافية بما فيها الملاحظة التي تسمح باستنتاج تأثير الحالة الداخلية للفضولي.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أنه عكس المفهوم الكلاسيكي للتحجيم النزوي، فإن هذه النظرية تقدم على أن الفضولية ليست هذه الحالة من الإنذار ولا ذلك الضغط النزوي ولكن الوظيفة أو القدرة على الإبقاء على هذه الحالة في مستوى معين من التنشيط الأمثل.

إن العوامل الخارجية للتأثير المسببة للإنذار يمكن كذلك أن تغير العتبة المثلى لحالة الطوارئ مثل التعرض المستمر للتعقيد يمكن بعد فترة زمنية أن ينظم وظيفة الاستفاقة (الوعي) في هذا المستوى.

يصور برلاين خلال بناء نظريته حول الفضولية البشرية نوعان منها وهي : الفضولية الإدراكية والثانية معرفية. فالفضولية الإدراكية توجه الاستكشافات الآنية لعالم المثيرات وهي تميز أغلب مجهودات الأطفال . أما الفضولية المعرفية فتخص العلاقات بين الرموز والأفكار المجردة وتتطلب قدرة على تنظيم الإنذار وحالة الطوارئ والانتباه خلال فترة زمنية طويلة.

فبرلاين يعتقد بأن لدى الراشد هاذين الشكلين من الفضولية تلتقيان في معنى أن الفضولية الإدراكية تدخل عادة عنصرا جديدا في حقل الإثارة، هذا العنصر الذي بدوره يتموضع في الذاكرة ويؤثر على البنيات الرمزية.

4-الفضولية في منظور السيكولوجية المعرفية: يصف " بياجي" (1969) الاستكشاف وعبرها الفضولية كتمظهر لمنفعة في الجديد، هذه الفائدة الفطرية التي هي الدافعية لعمليات التعلم والمعرفة والبحث عن المعلومات، فبياجي يصور سلسلة من المراحل المعرفية التي تؤدي إلى النمو في مستوى مرتفع من الدافعية والاهتمام بالجديد.

هذه المراحل تبدأ بمجهودات مبكرة لدى الرضيع الذي يبحث على ضبط أو فهم المعلومة الجديدة أو تلك التي غير متسقة مع المخططات العقلية (السكيمات) الموجودة، تبلغ هذه المراحل بالطفل الذروة عبر المجهودات التي تُكوِن مخططات عقلية جديدة انطلاقا من وضعيات حديثة غير متوافقة، فالطفل يختبر تجربة الجديد لما تعجز البنيات المعرفية الحالية ويستحيل معها فهم موضوع أو حدث(Piaget, 1969,pp.19-20)

فالطفل يحاول إذن البحث على توسيع قدراته لفهم أو لحل الإشكال الجديد وتكوين مخططات عقلية جديدة، وتصبح هدفا في حد ذاتها وبالتالي فإن الاكتشاف والاستكشاف يرتبط بهذا النظام المعرفي. أما دافعية الاستكشاف فهي ترتكز على بروز قدرات معرفية أكثر تعقيدا وعلى تكوين تمثيلية جديدة.

يرى " بياجي " بأن الفضولية لا تعمل مستقلة عن المعرفة والاستكشاف فهي بالنسبة له صيرورة معرفية خالصة ولكن هذا التنبؤ لا يجد الدعم الكافي من طرف الدراسات الوصفية للفضولية لدى الطفل عن طريق المقابلات والاستبيانات (Voss & Keller,1983,p16)

5- الفضولية من منظور اجتماعي: إن تجارب " وايت" (1959) حول الفضولية عن طريق مفهوم الكفاءة التي يعرضها على أنها القدرة على التفاعل الواقعي مع المحيط، تساهم حسب تصوره في تقديم الكفاءة كنظام من الدافعية المستقلة والتي لا يعود أصلها إلى النزوات، فالكفاءة مدفوعة من قبل التفاعل الواقعي أي بذلك الشعور المريح الذي نشعر به لما نتعرف أو نفهم ظاهرة ولما نحقق نتيجة (هدفا). فالمصلحة والاستكشاف تبقى لمدة طويلة كلما واصل الشخص الاكتشاف الجديد في وضعيات معينة وبالنتيجة كلما استمر شعوره بالارتياح.

فبعض المظاهر أو المهام المثيرة تؤثر على مشاعر الاستمرار في التفاعل، فنموذج "وايت" يشير إلى أن الفضولية تتمثل في الحصول على الشعور بالارتياح والمتعة والتحكم. فحسب رأيه فإن التأثر هو العامل الدافع، والفضولية حالة داخلية التي تضع السلوكات في حركة التي تسمح ببلوغ الكفاءة، وبالتالي مهما يصل الشخص إلى التحكم في المثير أو المهمة أو الوضعية ، فإنها لا تشبع نزواته وبالتالي يواصل البحث عن وضعيات جيدة أكثر إلحاحا.

يؤكد "وايت" على أن الكفاءة ليست مقابلة للاستكشاف ولكنها نتيجة النشاطات الاستكشافية، وكذلك استمرارية التفاعل الفعال مع المحيط أو أحاسيس الارتياح والشعور الإيجابي مرتبطة بحالة داخلية لكينونة الفضولية بمعنى أن تلك

الحالة الداخلية هي السبب في تكوين الكفاءة بفضل الأنشطة الاستكشافية وهذا النموذج يوضح العلاقة التصورية بين الشعور والفضولية.

يضع " وايت " (1960) عدة علاقات بين الفضولية والسلوك لدى الطفل ويضع هذه المفاهيم للكفاءة ضمن إطار النمو، ففي وضعيات مبكرة للحضانة يضع الطفل الجهود الأولية للوصول إلى الكفاءة أي ضمن طابع اجتماعي أين تظهر بوضوح الفضولية المبكرة لاستكشاف الدافعية والمجهود المؤدي إلى الكفاءة.

في الحالات العادية يصبح العالم الخارجي للمولود مبكرا عالما اجتماعيا، فالعديد من السلوكات المبكرة للاستكشاف والتثبيتات البصرية تتوجه نحو إشارات مدعومة من طرف الوالدين كالصوت أو الوجه مثلا.

فمنذ الشهر الرابع تبدأ القدرة على إدراك الأشكال والاستجابة للوجه في كليته، كما يمكن له خلال الشهر الخامس من التمييز بين تعبيرات الوجه لمختلف حالات العاطفية للراشد ويستجيب لهذه التعبيرات خلال الأشهر الستة والتسعة الأولى كما تبرز العديد من القدرات الإدراكية الإدماجية التي تسمح للطفل بالتوجه الإدراكي بصفة أكثر استبصارا مقارنة بالراشد (White, 1963,p.3)

أما خلال السداسي الثاني للعام الأول يبدأ الأطفال بإظهار القدرة على دراسة شيء أو حدث قبل الفعل، أما خلال الشهر التاسع يبحث الرضع للوصول إلى الأشياء المعروفة أو المجهولة بنفس السرعة، بعدها الأشياء المجهولة وبعدها يلامسونها بعد تريث معتبر، هذا الوقت المخصص للتريث يوحي بوجود قدرة للوصول قبل رد الفعل وهذا ما يعطي للطفل الوقت لاستقبال معلومات من الآخرين أو بمقاربة الأشياء أو الوضعيات بذكريات سابقة.

لكن السؤال المطروح هل توجد علاقة بين أنشطة البحث والاستكشاف من جهة واستجابات الآباء للجهود الاستكشافية وعلاقتها بالمصلحة المستقبلية لدى الطفل في الاستكشاف والجدة؟

توفر نظرية التعلق لبولبي Bowlby (1953) إطارا يسمح بضم متناسق للروابط الموجودة بين الأنشطة الاستكشافية لدى الطفل والطلبات المرسلة نحو الوالدين، فحسب بولبي(Bowlby) (1969-1982) فإن الوالدين يستخدمان كوظيفتين لدى الطفل وذلك أولا بما يمدانه بقاعدة أمنية (آمان) التي عبرها يمكن للطفل استكشاف المحيط، فخلال العام الثاني يستكشف بعمق ما يقع في الحقل السمعي والبصري للأم لما يكون الرجوع إليها ظرفيا والحصول على ما يريده، وثانيا يوفر للوالدين كذلك ملاذا أكيدا والذي عبره يمكن للطفل العودة إليه لما تكون خرجاته الاستكشافية مضطربة أو مزعجة.

إن مفهوم التعلق المقترح من طرف بولبي(Bowlby) له قاعدة في ملاحظة الحاجة التي يبديها الطفل في البحث والبقاء بجانب الراشدين في المراحل الأولى للحياة، هذه الحاجة ضرورية للحياة وتستمر في ما بعد كقدرة على تنظيم التوتر والاستثارة.

فالرغبة الجوارية أو الاتصالية بالأم تتغير حسب العوامل المرتبطة بالنمو وبالمحيط ففي حالة الوضعيات الجديدة يكون الطفل متحفظا وحتى في الحالات المثلى يبقى بالقرب من الوالدين ويرجع إليهم حتى تنخفض شدة المثير الجديد وتصبح مهمة أكثر مما هي مزعجة، وبذلك فإن عالم الأشياء لدى الطفل يمده بطابع عاطفي الذي عبرها يكون الاستكشاف مجهزا ومدعما.

توجد لدى الطفل كما لدى الراشد علاقة بين التأثر الموجب وحل الإشكاليات كما يؤكد الباحثون على أن هذا التأثر الموجب لدى الطفل وظيفة تيسيرية معتبرة كما توجد الوظائف البارزة للاستكشاف وحل المشكلات للنمو الاجتماعي لدى الرضيع.

هذه الحالات العاطفية الموجبة مرتبطة بالقدرة على الاهتمام والتمييز بين المعلومات الجديدة وكذا على الحل المقترح للوضعيات الممكنة.

6- جذور الفضولية المعرفية: من خلال تتبعنا لمختلف الرؤى الإنشائية حول الفضولية، يتصدر اهتمامنا هنا تساؤل جوهري، ما هو الشيء الذي يجعلنا نستمر في الاستكشاف؟

كل المنظرين الذين مروا علينا من خلال التحليل حاولوا الإجابة على هذا السؤال مثل ما ذهب إليه " فرويد " في أصل ظهور الفضولية بعد نمو القدرة على السؤال الذي هو الوسيلة اللغوية للاستكشاف العالم أو " كلاين " التي تضع الفضولية أو الرغبة في المعرفة قبل اكتساب اللغة.

لكن ما يشد اهتمامنا هو التساؤل عن سبب استمرار بعض الأفراد في البحث والاستكشاف ويبدو أنهم مدفوعون نحو العلم من قبل قوة داخلية، بينما البعض الآخر يفضلون البقاء في حدود القليل من العلم المكتسب ويرجعون ذلك إلى قلة الأهمية أو استحالة الوصول إليه.

على المستوى الأولي، الشيء الذي يدفع للفضول يكمن في استكشاف شيء مجهول، أي مهما كانت التهديد أو الشكوك حول المجهول، فإنه هناك شيء ذو قيمة تبرر ركوب الخطر.

وبما أن هناك الشك والخوف، وأن الشخص يستعمل مقاربات دفاعية متعددة من أجل الاستجابة لتلك التأثيرات، فإنه يوجد من يغامر رغم القلق والتوتر الذي يرتفع ولن يرتاح إلا بعد الوصول إلى المتعة والإثارة.

غير مستكشفة داخليا أو خارجيا، لكن لم يتضح بعد لماذا بعض الأشخاص يختارون الاستكشاف والفضولية على أنشطة أخرى من أجل الحصول على حلقات وجدانية متشابهة؟

تكمن الإجابة لدى الأطفال الذين يكتشفون ويستكشفون، فالفرصة المألوفة لإبداء شعور الارتياح في وجود الآخر يرفع من احتمال الاستمرارية في استعمال هذا النموذج للحصول على اللذة وخفض التوتر، وعلى العكس كلما بقيت تلك الأسئلة دون جواب فلا يقابلها إلا الإحباط، كلما كانت استكشافاته محدودة، وفي هذه الحالة فإن الفضولية تتيح حلولا نادرة وهذا السلوك غير منتج يستمر كدفاع ضد الإحباط والغضب من عدم المعرفة.(Kreitler & Zigler, 197,p.188)

فالاستكشاف المعزز بالتحكم والارتياح يكون لديه حظا أوفرا للاستمرار كوظيفة ذاتية مدمجة ومنظمة للأنا مستغلا مختلف الوظائف الإدراكية الفردية وبعبارة أخرى كلما كان الاستكشاف مريحا كلما تسامت الفضولية ولن يكون ذلك تعبيرا مباشرا وحصريا للحاجات الغرائزية والاحباطات.

فالوظيفة المنظمة للانتباه تنمو لدى الرضيع وهي وظيفة ذاتية، وتشمل الأنا الذي يدمج الأنشطة الإدراكية الفردية؛ هذه الوظيفة المنظمة تستمر من الطفولة إلى الرشد حيث العديد من الأحداث والظواهر البيولوجية تؤثر على نمو هذه القدرات المنظمة للانتباه ونموها المدعم يظهر بموازاة للتغيرات الكبرى لتنظيم الجهاز العصبي المركزي.

كما هو لدى الطفل فكذلك الراشد، فالفضولية تعكس استثمارا ليبيديا مبكرا في التجارب الإدراكية، ففي الوظائف العصبية البيولوجية التي تدعم المجهود الاستكشافي للانتباه والإدراك يمكن تمييز المظاهر المرتبطة بنضج الاستثمار الليبيدي بينهما.

توصل هارتمان (Hartmann) إلى أن القدرات الاستكشافية لا تنمو انطلاقا من المصالح والرغبات الليبيدية ولكنها موجودة بصفة مستقلة ويمكن أن تستخدم لأهداف ليبيدية كما تكون في خدمة الرغبات والأهداف العدوانية ومن هنا يمكن القول بأن الفضولية استثمار ايجابي ليبيدي في الاستكشاف (Hartmann, 1964, p.21) .

إن الفضولية ليست ظاهرة مبهمة وفريدة؛ فالفضولية كاستثمار ليبيدي تبرز من خلال الطابع الوجداني من قبل التفاعلات المبكرة بين الطفل والآباء حيث يوقد الوسط الاجتماعي تلك الانفعالات، وبذلك فالفضولية بعيدا عن نظام الأشياء لا معنى لها.

إن الحالة الداخلية للشخص الفضولي لا تتغير بصفة خطية لما يمر من تجربة إدراكية إلى سلوك وفعل رمزي ومجرد كما تتعقد أنظمة التصنيف التقليدية لمختلف أنواع الفضولية، والحقيقة أن كافة أشكال الفضولية مغذاة من طرف

التجارب الإدراكية المُمَونة من قبل النظام الأولي (الرغبات والغرائز)، وأن تلك الأشكال الرمزية يمكن أن تعدل التجارب وتساهم في صياغة التساؤلات عندما يبرز النظام الثنائي (التفكير الرمزي).

إن الاستكشاف المفصول عن التأثر أو الاستثمار الليبيدي هو استكشاف محروم من الفضولية، ف"فرويد" يضع علاقة بين الفضولية والرغبة الجنسية المبكرة بمعنى أن الرغبات توفر مصدرا للمتعة والإثارة، كما أن هذه المتعة تنتج من النجاح والتحكم والفهم لدى الأطفال كما نجدها لدى الراشدين الفضوليين.

إن الفضولية ذات اتجاه ثنائي، داخلي وخارجي، فكما تتموقع مع العالم الخارجي (الاجتماعي) فإنها كذلك متجهة داخليا للاستكشاف الذات.

فالطفل الذي يشرع في المشي يستكشف الآخر وعبرها ذاته، فالاستكشافات المنشطة من قبل الفضولية تبين التفاعل المتبادل بين الأبحاث الموجهة نحو الداخل والاكتشافات الموجهة نحو الخارج، فالفضولية تضع التشارك في البحث حول كل اتجاه يساهم في معرفة الاتجاه الآخر.

معظم الدراسات الامبريقية للفضولية كانت فيها مواضيع الدراسة للأطفال يتراوح فيهم العمر من ستة سنوات إلى غاية البلوغ (Maw,1970 , p.125)، لأن خلال فترة الكمون تكون الفضولية بوضوح في خدمة النمو المعرفي وعلى أقل تقدير فإن الاستكشافات تكون منظمة ومنهجية، أما الجهود التجريبية لفترة التمدرس توفر لهم مشاعر إيجابية عند إتمام مهمةّ وكذا توفر لهم رؤية أكثر تنظيما للعالم الخارجي، تلك الجهود التي لا توجه نحو حل الإشكالات في العلاقات البينية كما في المرحلة الأوديبية ولكن تلك الجهود تشكل قاعدة للرؤية التي يكونها الطفل حول نفسه، كما تساهم في تكوين رؤية حول ذاته كما يراها الآخرون.

إن آخر مرحلة لفتت انتباه الباحثين كما رأينا هي مرحلة المراهقة التي تكون فيها الفضولية في خدمة الدفاعات، فالمراهقة بما تأتي به من نمو ملاحظ في القدرات المعرفية وقدرة متزايدة للتفكير المجرد، هاتين الوظيفتين تقفان وراء اللذة والتحكم كما يمكن أن تربط بالمتطلبات الغرائزية، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن المراهق يهتم أكثر فأكثر بأفكاره ومشاعره الخاصة وبذلك يتزايد الاستبصار وتتجه الفضولية نحو استكشاف الذات وتسهل العملية المتبادلة بين الاستكشافات الداخلية والخارجية التي هي خاصية الفضولية لدى الراشد(Vidler, 1977, p.4) .

خلاصة:

إن البحث عن استكشاف المجهول وعدم الصبر حتى الإلمام بكل جوانبه وجمع المعلومات الغائبة حتى التمكن من الإحاطة بكل تفاصيله (و كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) الكهف:68، كان الهاجس الذي سكن العديد من المختصين من أجل البحث عن المنشأ النفسي للفضولية ومن أجل استجلاء التجاذب بين السلب والإيجاب لوظيفة الفضولية فقد ركزت جميع دراساتهم التجريبية ومقارباتهم النظرية التي تناولت الفضولية على مراحل عمرية دنيا سواء عند الأطفال الرضع أو عند الأحداث، حيث نجد اختلاف الرؤى تبعا للمدارس والنظريات سواء من مدخل التحليلي النفسي أو السيكولوجية المعرفية أو المنظور الاجتماعي ومهما كانت توصيفاتها: سمة، دافعية، حافز، فإن الجذور التكوينية والمرامي الوظيفية تخدم جميعها ماهية الوظيفة المتكاملة والمميزة للفضولية كونها تبدو كتمثيل وظيفي مستقل للأنا وشديدة الارتباط داخليا بالغرائز وفهم الذات وخارجيا بالأشياء والموضوعات.

إن وظيفة الفضولية تعد منظما أساسيا لكل مرحلة من مراحل نمو الإنسان بداية من الطفولة حيث تسمح لهم باكتساب التحكم في المجهول، كما أنها رغم اختلافها من شخص لآخر فهي وظيفة إدماجية تنظم الطوارئ والدافعية والعاطفة فهي موجودة أصلا لدى الرضع كونها تمتلك قاعدة عصبية، كما أنها قابلة بأن تكون مُكونِة ومُوجِهة من طرف التجارب الاجتماعية للطفل ويمكن أن تستخدم لأغراض غرائزية وعدوانية.

كما كانت الفضولية الإدراكية توجه الاستكشافات الآنية لعالم المثيرات فهي تميز أغلب مجهودات الأطفال فإن الفضولية المعرفية تضيف في عالم المراهقين معرفة العلاقات بين الرمز والأفكار المجردة.

وكإجابة عن التساؤل في المقدمة، ومن خلال هذا العرض يبدو أن الفضولية وظيفة متكاملة فهي ذات اتجاه ثنائي داخلي وخارجي، حيث تبدو وظائف الآنا المكونة للنشاط الاستكشافي متآلفة قي وحدة تركيبية مدمجة تجعل النشاط الغرائزي يتفاعل خارجيا مع المتطلبات حيث تقع المثيرات على خط سببي في استثارة الدافعية التي تُسير تلك الوظائف الاستكشافية بفعل النزوة المعرفية، سواء ارتبطت بمرحلة ما قبل اللغة (كلاين) أو بعد اكتسابها (فرويد)، فهي لا تنفك عن أصل الاستكشاف لقيمة الشيء حيث تجعل الفرد في حالة طوارئ حتى في ركوب الخطر، بداية من الإنذار الداخلي، إلى الرغبة لمعرفة الجديد وصولا إلى الارتياح وإزالة التوتر.

وأخيرا ما يمكن استنتاجه هو أن الملاحظة والتجريب كانتا أداتين كثيرتا الاستخدام في دراسة الفضولية لدى الأطفال وشحت الدراسات حول الراشد حيث يمكن استخدام المقابلات والاستبيانات التي تضيف دعما كافيا بفضل التنبؤ بصيرورتها المعرفية حيث تدخل الفضولية الإدراكية عادة عنصرا جديدا في حقل الإثارة، ذلك العنصر الذي بدوره يتموضع في الذاكرة ويؤثر على البنيات المعرفية تسمح بالتعرف على وظيفتها في عالم الرشد الذي لا يمكن بأي حال أن ينفصل عن الخبرة والتجارب الطفولية.

قائمة المراجع:

1-Aronoff ,J.(1962). Freud’s conception of the origin of curiosity, journal of psychology, vol.54, pp.39-45.
2- Berlyne,D,E.(1950). A theory of human curiosity, British Journal of Psychology, vol.45, pp.180-191.
3-Berlyne, D.E (1954). An experimental study of human curiosity. Brit.J, of psychol. Vol.45, pp.256-265.
4- Berlyne, D.E ;(1957). Conflict and information- theory variables as determinants of human perceptual «curiosity, J. of exp. Psychol. Vol.53, pp.397-404.
5- Berlyne, D.E. (1960), conflict, Arousal and Curiosity, McGraw-Hill, New york, 132
6-Berlyne, D; E (1966). Curiosity and exploration. Science153, pp.25-33(b).
7-Bowlby J (1953). Child Care and the Growth of Love. London: Penguin Books.
8-Edelment, S. (1997). Curiosity and exploration. California State University, Northridge.
9- Fowler, H. (1965). Curiosity and exploratory behavior. New York: Mc- Milan.
10-James, W. (1950). Principles of psychology (vol. 2) New York: Holt Original work published.
11- Hartmann, Heinz, (1956). The ego concept in Freud's work. International Journal of Psycho-Analysis, 37.
12- Hartmann, Heinz, (1964). Essays on ego psychology. New York, International Universities Press. (Original work published 1939).
14- Hinshelwood, Robert (1989), A Dictionary of Kleinian Thought, Free Association Books, UK.
15-Kreitler.H, Edwards Zigler. (1974). Cognitive orientation and curiosity, .Brit. Journal. of psychol., 65, 1:43-52.
16-Kreitler .H.,Zigler .E. , Kreitler, H.(1975). The nature of curiosity in children ".J. of School psycho .vol.13. Pp.185-200.
17-Maw. W.H. (1970). Self- concept of high and law curiosity boy, Child Development, vol, 42, pp.123-129.
18-Piaget, J. (1969), Psychology of intelligence. New York: Littlefield. Adams
19- Saxe, R, & Stollack, G. (1971), Curiosity and parent – child relationship. Child dev, vol.42, pp.373-384.
20- Vidler. D.C. (1977), «Curiosity. In S. Ball(ed): Motivation in education, New York: Academic press.
21- Voss, H, & Keller, H. (1983), " Curiosity & Exploration: Theories and results " New York, Academic press.
22- White, Robert W. (1963), Ego and Reality in Psychoanalytic Theory: A Proposal Regarding Independent Ego Energies. Psychological Issues, Vol. 3, No. 3. New York: International Universities Press.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

د. بشقه عزالدين ، (2020) **أشكال الفضولية عبر المدارس** (قراءة في جذور المنشأ والوظيفة **)**، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 12(02)/ 2020، الجزائر : جامعة قاصدي مرباح ورقلة، (ص.ص 75- 84) .